

٢. كان فصيحاً بليغاً (كاتباً) مراسلاً (جيد) الفصول حسن التوقيع، مطبوع الشعر، وكان

٣. زكراً مجيداً^٢ وكان عبد الرحمن من أهل العلم، وعلى سيرة جميلة من العدل... وكان عبد الرحمن

ابن معاوية فصيحاً بليغاً، حسن التوقيع، مليح الفصول، معدوداً من أهل العلم، وعلى

سيرة حسنة من العدل^٣. أحد الموروث

٤. كما وصفه ابن حيان القرطبي بقوله: "كان عبد الرحمن راجح العقل، فاسح العلم،

ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة، متصل الحركة، لا

يغفل إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إتمامها

برأيه، شجاعاً مقداماً....."^٤. فراغ

٥. وصفه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بـ "صقر قریش" وقد سأل جلّسه من هو

صقر قریش؟ قالوا أمير المؤمنين الذي راض الملك وسكن الزلازل وحسم الانواء واقاد

بالأقال: ما صنعت شيئاً، قالوا افعوية قال: ولا هذا قالوا فعبد الملك بن مروان، قال: لا

قالوا فمن يا أمير المؤمنين قال: عبد الرحمن بن معاوية الذي تخلص بكيده عن سن

الأسنة وظبابة السيوف يعبر القفر ويركب البحر حتى دخل بلداً أعجيباً فمصر الأمصار

وجند الأجناد وأقام ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة عزمه^٥.

أبو العباس السفاح
أبو جعفر المنصور

(١) مجهول، فتح الأندلس، ص ٥٩.

(٢) ابن الخطيب الغرناطي، أعمال الأعلام، ص ١٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المقرئ، نفع الطبيب، ٣/ ٣١.

(٥) ابن القوطية، افتتاح الأندلس، ص ١١٨-١١٩.

الفصل الرابع

الأسطول البحري الإسلامي

*نشأة الأسطول العربي الإسلامي وتطوره

لقد جعل الله البحر على صفة يتمكن الإنسان من ركوبه بإذنه ومشيتته^(١)، لينتفع من فضله بالتجارة تارة والغوص للدر والصيد فيه تارة أخرى لتشكروا الله على نعمائه لتسخيره لكم^(٢).

وفي السنة النبوية المطهرة من الأحاديث التي تدعو إلى الجهاد في البحر، فقد روي عن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "غزوة في البحر مثل عشر غزوات البر" ^{١٥} البروالذ بيسر في البحر كالمتشحط^٢ في دمه في سبيل الله سبحانه^(٣).

لم يكن للمسلمين فعاليات عسكرية في البحر على عهد النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) لأنه دولة الرسول لم تدخل قتال خارج الجزيرة العربية يتطلب ركوب البحر. كما لم يشهد عهد الخليفة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) أي نشاط بحري للمسلمين تجاه أعدائهم. في الوقت الذي نهى فيه الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ^{١٤} ^{عبد} ^{ابن} ^{عمر} ^{بن الخطاب}

(١) الطبري، جلامع البيان في تفسير القرآن، مطبعة بولاق، مصر، ١٣٢٣هـ، نسخة مصورة، ص ٢٥٥/١١.

(٢) ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت: ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، دار التراث، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م، ج ٤/١٩٠.

(٣) المتشحط: المتضرع في دمه. ابن ماجه: محمد بن يزيد أبو عبد الله (ت: ٢٧٥هـ)، سنن ابن ماجه تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ج ٢/٩٢٨، رقم الحديث (٢٧٧٨).

(٤) النيسابوري: محمد بن عبد الله الحاكم، المستدرک على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ج ٢/١٥٥، رقم الحديث (٢٦٣٤).

(٥) ابن هشام: محمد بن عبد الملك (ت: حوالي ٢١٨هـ)، سيرة النبي، تحقيق: مصطفى السباعي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٥م، ج ٢/٢٤٥.

ركوب البحر، إلا أننا نجد أخبار عن عثمان بن العاص النقي، والي البحرين وعمان غزا سنة (١٥٥هـ/٦٣٦م) تخوم سواحل الهند، وكان هدفه مدينة تانة (١)، وعند عودته إلى البحرين كتب إليه الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قائلاً: "يا أخا تقيف حملت يوداً على عود، إني أحلف بالله إن لو أصيبوا لأخذن من قومك مثلهم" (٢)، وذلك لأنه خرج بهذا الجيش الكبير دون استئذان الخليفة.

وكان ركوب البحر للمرة الثانية على عهد (عمر بن الخطاب) في الحملة التي قادها (العلاء بن الحضرمي)، إذ يشير الطبري إلى إن العلاء كان ممن قاتل المرتدين في البحرين وولى إمارتها بعد عثمان بن العاص (٣).

العلاء بن الحضرمي

ثم توجه لغزو بلاد فارس سنة (١٧هـ/٦٣٨م) في جيش قوامه (١٢) ألف من بدون ابن الخليفة (٤). وفشلت الحملة وغرقت سفنهم ولم يتمكنوا من العودة عن طريق البحر، فاضطروا إلى السير براً نحو البصرة، فغضب عليه الخليفة عمر غضباً شديداً فعزله (٥). تطلبت الحاجة إلى (الأسطول البحري) بعد فتح الشام، إذ أصبح العرب المسلمون على مقربة من البيزنطيين وشاهدوا السفن البيزنطية التي كان لها عميق الأثر في تطلع العرب لتكون لهم أساطيل مثلما يمتلكه البيزنطيون، وهذا ما دفع معاوية بن أبي سفيان أن يطلب من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أن يسمح له بغزو الروم

(١) تانة: هي مدينة في بلاد السند التي غزاها والي البحرين عثمان بن العاص، وتمكن منها . البلاذري، فتوح البلدان، ٣٨٦، ٤٣١.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ٣١٦، ٤٣١.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٢٣٢/٦.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، ٢٣٢/٦.

قرب الباب الأساسي

بحراً لقربها منهم أولاً، ولتفادي خطرهم ثانياً (١). فكتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمر بن العاص والي مصر أن يصف له البحر فأجابه عمر بن الخطاب قائلاً: "يا أمير المؤمنين: إنني رأيت البحر خلْقاً كبيراً يركبه خلقاً صغيراً، ليس إلا السماء والماء، إن ركد أحنن القلوب، وأن تار ازاع العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق" (٢).

هذا الوصف الدقيق للبحر جعل الخليفة عمر بن الخطاب يرفض طلب معاوية بن أبي سفيان بركوب المسلمين البحر، فكتب إلى معاوية قائلاً: "لا والذي بعث محمداً بالحق لا آمن فيه مسلماً أبداً" (٣).

يبرر ابن خلدون سبب عدم ركوب العرب البحر هو لبدائتهم ولم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافة البحر وركوبه، إذ أشار إلى أنه: "لما استقر الملك للعرب وشؤونهم، وصارت أمم البحر خولا لهم وتحت أيديهم، وتقرّب كل ذي صنعة إليهم بصناعاته، واستخدموا في النواتية في حاجاتهم البحرية أمماً، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته، فتنامت نفوسهم إلى الجهاد فيه وإنشاء السفن فيه والشواني، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطروها بالعساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر..." (١). رأي ابن خلدون هذا فيه مجاورة للحقيقة، إذ إن العرب بلادهم تحيط بها المياه مما جعلهم على تماس معه، لاسيما بالأعمال التجارية، والدليل معرفتهم الدقيقة بالأمم التي تنافس على البحار كالهند مثلاً، فكانت تجارتهم متبادلة مع سكان القارة الهندية.

(١) البلاذري ن فتوح البلدان، ١٤٥.

(٢) البلاذري ن فتوح البلدان، ١٤٥.

عبدان بن عفان

ان تكرار هجمات الروم وغاراتهم على مدن ساحل الشام، أجبرت الخلافة على عهد عثمان بن عفان (رضي الله عنه) بأن يقدموا على الإعداد لإنشاء الأسطول البحري الإسلامي، فأخذ معاوية بن ابي سفيان بإنشاء الأسطول العربي للوقوف بوجه تلك الهجمات المتكررة وفتح جزر البحر الشامي، كقبرص وأرواد ورووس، بغية إبعاد الخطر البحري البيزنطي على سواحل الشام أولاً، ولتكون هذه الجزر قواعد عسكرية ومراسي للأسطول العربي ثانياً (١).

يمكن القول إن الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) كان حريصاً على سلامة المسلمين، وعدم الأضرار بأرواحهم شأنه في ذلك شأن الخلفاء الذين سبقوه.

معركة ذات الصواري

في سنة (٣٤هـ/٦٥٥م) أراد الروم الانتقام من العرب المسلمين بعد أن تمكنوا من فتح جزيرة قبرص وذلك عن طريق مهاجمة الإسكندرية بقوة مؤلفة من خمسمائة مركب أو يزيد، عند ذلك جمع القائد عبد الله بن سعد بن ابي سرح لقتالهم أسطولاً يتكون من (٥٠٠) مركب، وأراد المسلمون المعركة تكون برية. وأرادها الروم معركة بحرية نتيجة لإمكانياتهم البحرية المتفرقة. وهنا استعمل المسلمون الذكاء العسكري في إدارة تلك المعركة، فقد حولوا المراكب إلى ساحة قتال عائمة بعد أن ربطوا المراكب ببعضها ببعض بواسطة السلاسل وأخذوا يتقاتلون بالسيوف، وانصدم الروم من ذلك، إذ تمكن المسلمون من تحقيق النصر المؤزر على الروم^٢. وعرفت المعركة بإسم (ذات الصواري) أو (الصواري) ويبدو أن سبب التسمية يعود إلى كثرة الصواري لا سيما بعد أن ربطت السفن مع بعضها.

بعد معركة ذات الصواري لم نشهد أي نشاط للأسطول البحري العربي وحتى النشاط البري، وذلك بسبب أحداث الفتنة التي وقعت وذهب نتيجتها الخليفة عثمان بن عفان

(رضي الله عنه)، ثم استمر ركود العمليات العسكرية خلال خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بسبب ظهور الخوارج والمعارك التي حدثت. ولم يهدأ النشاط الحربي سواء كان بالبر أو بالبحر إلا بعد أن استقرت الأحوال السياسية بعد آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان.

* الأسطول البحري على عهد الدولة الأموية:

نتيجة لقرب دمشق عاصمة الخلافة الأموية من حدود الإمبراطورية البيزنطية من جهة، وتزايد خطرهم على الدولة العربية الإسلامية من جهة أخرى، فضلاً عن التهديد البيزنطي بحرباً، اضطر معاوية بن أبي سفيان إلى تأسيس أسطول بحري عربي تكفي مهمته حماية الدولة من الأخطار البيزنطية، فأقدم على اتخاذ بعض الإجراءات من أجل إنجاح هذا المشروع منها:

- ١- استعان بأهل البلاد والمدن الساحلية ممن لديه خبرة في بناء السفن.
- ٢- ونظراً لتاريخهم الطويل في البحر، فقد استعان بملاحي الشام، إذ تعود خبرتهم في زمن الفينيقيين (١)، لاسيما سكان مدن صور وصيدا وطرابلس الذين قد تألقوا في صناعة السفن، فضلاً عن اشتهارهم بركوب البحر.
- ٣- كما استعان معاوية بأصحاب الخبرة والممارسة في المجال البحري من أهل البحر لأنهم كانوا يحتفظون بتقاليدهم التي ورثوها من أسلافهم السبائيين والحميريين، على الرغم من انقطاع نشاطهم التجاري نتيجة الغزو الحبشي والفارسي (٢).

صراعات
مع
رم
يها
بأمية

(١) العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ١٩.

(٢) المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي.

إسماعيل الصاوي، مكتبة